

بقلم خليل رامز سركيس . منشورات الندوة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٥

لكن خليل رامز سركيس يعالج موضوع الانسان والكون على الاخص من خلال آراء تيلار دو شاردان ومحاولاته التوفيقية الاصلية كما شرحها في كتابه « الظاهرة الانسانية » (الذي نشر في فرنسا بعد وفاة مؤلفه عام ١٩٥٥ في امريكا) .

والثلاثية التي بين يدينا تعكس الكثير الكثير من مفاهيم تيلار دو شاردان ، وعلى الاخص فكرة الطاقة التي توحد العالم (« ارضنا الجديدة » ص ٩٧) ، والنظر الى التقدم على انه حركة تحور « الى الامام والى فوق » و « الايجد الاساس » (« مصر » ص ٢٤ وغيرها) . هذه كلها تذكرنا بنظرة دو شاردان ورواياه العلمية - الصوفية في آن واحد ، اذ هو ينظر الى الكون والانسان و « الله » بمنظار ارتقاء من نقطة الالف الى نقطة الياء العليا . ويعتبر الطاقة من اهم خصائص المادة والكائنات ، سواء اكانت طاقة خارجية بمعنى التماس او « مشعة » تعمل في الداخل . ويرى الكون كله في وحدته وتعددته متجها صعدا في تطوره نحو ازدياد الوعي ومجاوزا ذلك الى النطق والفكر - الى طبقة العقل (Noosphere) . ولا يخلو كتاب « مصر » من هذه الآراء والمفاهيم ، لا بل نجد خليل رامز سركيس وقد استوعبها فصارت جزءا لا يتجزأ من تراثه الفكري الشخصي ثم اعاد خلقها في تأملاته وخواطره بصدق وجدة واصالة : « لست ابتغي تفسير الحياة . حسبي ان اكتشفها ، ما امكن ، لا اعتنق مصيرا ينزع الى « الامام والى فوق » ، في وحدة شأو » (« مصر » ص ٢٥) . ولكنها ما زالت تحمل صدق قول دو شاردان : « Tout ce qui monte, converge » .

اما الناحية الام في ثلاثية خليل رامز سركيس فهي « النفس الاوغسطيني » الذي يطفى على تأملاته ومناجاته وكثير من المواقف والآراء التي ترجع الى القديس اوغسطين في محاولته التوفيقية بين التقليد الكلاسيكي وبين تعاليم الكتاب المقدس والايمان المسيحي الذي اكتشفه ثم اعتنقه فيما بعد . ولربما

يمكننا النظر الى ثلاثية خليل رامز سركيس ، التي بدأها « بايام السماء » (١٩٦٠) واثناها « بارضنا الجديدة » (١٩٦٤) فجاء كتابه الاخير « مصر » (١٩٦٥) يجمع بينها ويتمها ، من زاوية الفكرة التي يعبر عنها نيتشه في العديد من كتاباته . فلقد كتب نيتشه عام ١٨٨٧ (« اصل منشأ الاخلاق ») في معرض نقده للنظرية العلمية الى الكون - من كوبرنيكوس الى داروين - تلك النظرية التي اخذت تحمل محل « علم الفلك اللاهوتي » شيئا فشيئا منذ كوزانوس ، يقول :

« أو ليست ارادة الانسان لتفسير نفسه في تقدم مستمر منذ كوبرنيكوس ؟ آه ، لقد قضي على ايمانه بكرامته وفرداته وانقطاع نظيره في سلم الكائنات ؛ اصبح حيوانا ، حيوانا لا مثيل له ، ... بدون نقصان او تحفظ ؛ وهو الذي كان ، حسب اعتقاده الاسبق ، قريبا من الله : (« ابن الله » ، صورة الله ») .

ثم عاد وعبر عن ذلك في « ارادة القوة » حيث اعلن : « منذ كوبرنيكوس والانسان يكرج من مركز الوسط نحو اللانهاية » . « يبدو ان الانسان ... قد انتهى الى منحدر - انه يكرج بسرعة متزايدة مبتعدا عن نقطة الوسط - الى اين؟ الى لا شيء؟ » من خلال ما تقدم يمكننا ادراك الخط الرئيسي الذي ينتظم جميع افكار المؤلف في تأملاته وخواطره . فالتركيز على مصر الانسان : « اي مركز في نظام الكون يشغل الانسان ؟ » (« ارضنا الجديدة » ص ٧٩) وجعل الانسان محور التفكير والتأمل ، لا بل نقطة الوسط في الكون : « الانسان هو الحدث الرئيسي في تاريخ الكون » (« ارضنا الجديدة » ص ٢٢) من ام اتجاهات الفكر الفلسفي في هذا العصر . وهناك حقل فلسفي خاص قائم بذاته يعرف « بالانثروبولوجيا الفلسفية » ، كان الفيلسوف الالماني ماكس شيلر اول من دعا الى وضع اسسه في العشرينات وقام بنشاط رائد في هذا السبيل .

كانت النزعة الاوغسطينية في تفكير المؤلف اقوى في « ايام السماء » و « ارضنا الجديدة » منها في « مصير » ، مع انه في الكتاب الاخير يعتنق نظرية المدينتين : مدينة العالم ومدينة الله - الكنيسة ؛ التي اشتهر بها اوغسطين وحاول توضيح العلاقة ما بينها على اساس زمانية العالم وتاريخيته وكون الكنيسة ما فوق الزمن (« مصير » ص ٢٦٧) . ولو رجعنا الى الكتابين الاولين لوجدنا انفسنا امام توكيد اوغسطيني بارز : اوغسطين يعلم : « لا تذهب خارجا ، عد الى صميم نفسك ؛ الحقيقة تقيم في داخل الانسان » ، و خليل رامز سر كيس يقول في « ايام السماء » (ص ٥١) : « الطريق في الباطن ومداها في الانسان » ولا مصير في خارج الانسان (ص ٤٥) و « انا الانسان ، كون مختصر » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٣١) و « مغامرتي ذاتية اول كل شيء » (« مصير » ، ص ٩٢) . هذه العودة الى الداخل ، الى الصميم ، تجد تعبيرها الايحائي ، مثلا ، في فهم اوغسطين للزمن والتاريخ فيها ذاتيا يرتبط بالذاكرة في تذكرها ورؤيتها وتوقعها . وقد عبر مؤرخ الفلسفة ثندلبند عن هذا الاتجاه لدى اوغسطين واصفا اياه « ميتافيزياء التجربة الداخلية » .

وثلاثية خليل رامز سر كيس فيها الكثير من غنى هذه التجربة وصدقها والتزامها للحقيقة الذاتية . لكنها في عودتها الى هذه التجربة لا تنسى الكون ولا تتخلل عن الابعاد الكونية ، بل تعتمد الى النظر الى الانسان من زاوية الكون ايضا : « رؤية الانسان رؤية كونية جامعة ؛ ليس الكائن الناطق شيئا يضاف الى الوجود . ولكن هو آية الوجود » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٤٩) . وفي « مصير » نراه يعلن : « لم يبق في وسع العالم ان يعتنق عقيدة لا تشتمل على طاقات الكون » (ص ١٢٤) . اذاً البعد الكوني الذي تعبر عنه العقيدة الشاملة يسير جنباً الى جنب مع البعد التاريخي للانسان . ونحن نجد المؤلف يتحدث كثيراً عن « النمو بالتاريخ » او « العمل ناميا في التاريخ » (« مصير » ، ص ٨٤) . فالانسانية ، او المغامرة الكبرى ، تجد مداها الحيوي في العالم ، تدخل العالم وغايتها مجاوزة العالم ، تخطيه والسمو عنه . هي تحامي عن

الجسد - عن تربيته وخلقه خلقاً جديداً والسر على عاقبته . لكنها تحامي عن الجسد ، لا كما يحامي عنه نيتشه ممن يزدرون مادته ويحتقرون طريقه وهم لا يتنبهون الى ان الجسد هو « العقل العظيم » والروح « آلة الجسد » و « العربة العقل العظيم » . بل كما ينظر اليه كلوديل : ليس الجسد هو الذي يحتوي الروح ، بل الروح هي التي تحتوي الجسد . (« ايام السماء » ، ص ٥٤) .

واذا كان المؤلف يولي الطبيعة والجسد والمادة هذا الاهتمام ، فهو لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يتعداه الى التشديد المستمر على ان تخطي الذات والطبيعة والكون من جوهر الانسان ومن صميم مغامرته الكبرى : « المجاوزة للطبيعة اساس المغامرة الكبرى » ، « انما خلقت لكي اتخطى ذاتي ابدًا » (« مصير » ، ص ٢١٤) ، وتبنيه مفهوم العمل والحركة والمشاركة ، على ما في ذلك من تجريد : « العمل هو الصلاة بالفعل » ، « باعمالهم يصلون » (« مصير » ، ص ٦١ و ٦٣) . هذا التبني يقصر في النظر الى جميع ابعاد العمل وعلى الاخص العلاقة التي تنشأ بين العمل ونتيجته او بين صانع العمل وصناعاته ومضروعاته . وهو البعد المجتمعي الذي ساهم كل من هيغل وماركس في توضيح مفهومه وتعيين اهميته القصوى بالنسبة الى الانسان في مغامرته الكبرى لتحقيق ذاته . وحين يعلن في « ايام السماء » ان « العمل لا يصنعنا . انما نحن صانعوه » (ص ٤٨) ، يبدو لنا انه لا يفي العمل حقه بالنسبة للدور الذي يلعبه العمل في حياة الانسان من جميع الوجوه . فالتوكيد على دور العمل في تحرير الانسان يغدو عنده مجرد تنبيه الى التزام العمل والمسؤولية والتاريخ . لكن النعمة ، لا العمل ، والكنيسة . لا العالم ، هي التي تحرر الانسان في نهاية المطاف . وهذا تناقض صريح تعج به تعاليم اوغسطين عن الحرية والنعمة ، تناقض يعتبره البعض دليلاً على عظمة تفكيره . اما خليل رامز سر كيس فانه ينظر الى العمل والفعل من زاوية ميتافيزيائية بجثة لا تغمط العمل حقه في تكوين العالم وتغييره ، لكنها تقصر في تعيين الابعاد المحسوسة والاجتماعية في مفهوم العمل الواقعي ، ومن ثم تفرط في التغني « ببطولة العمل » .

ما علاقة العمل بمفهوم المصير ؟ من خلال هذا السؤال يمكننا عرض الفكرة الرائدة في «مصير» ، وهي التي اضفت على الكتاب عنوانه . خليل رامز سر كريس قلق على مصير الانسان في العصر الحديث . وحديثه عن القلق بابعاده المحلية والكونية لا ينتهي به الى « مأساة القلق » فحسب : « الانسان المعاصر علة قلقه » (« مصير » ، ص ٢١٢ ، بل يتعداه الى تبيان الناحية الايجابية للقلق او ما يسميه « في ايجابية معناه المؤمن » (« مصير » ، ص ٢١٣) . ومع ان « القلق في الوجود قديم كالوجود عينه » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٢٩) ، فان القلق والتوتر والحيرة قد بلغت اشدها في عصرنا هذا ، اذ ان الخليقة مدعوة في قواصلها الى التضامن اكثر من اي وقت مضى ولان الانسان « قد اعيتته قوته ، اذ فجر طاقات عجز ان يسيطر عليها حق السيطرة » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٣٨) . هذا الشعور بالعجز حيال الطاقات الكونية المتفجرة يدفع الانسان الى « رؤية مداه الحيوي » ، الى اكتشاف ارض جديدة ، الى التزام المصير والمغامرة الكبرى . والفلة عن المصير (« ايام السماء » ، ص ٣٥) هي « شر ما يهدد الحضارة في العصر الحديث » . ولا بد لانسان المغامرة الكبرى عند خليل رامز سر كريس من « اعتناق المصير » ، اذ « مصيري هو العمل الذي انجزت » (« مصير » ، ص ٢٤) . و « التزام المصير » هو فحوى الدعوة التي تشارك في عمل التاريخ ، انه نقيض ما يدعوه المؤلف « بالاستقالة من الوجود » او الاعتزال و « الاضراب عن كل فعل » (« مصير » ، ص ٢٥٢) . الالتزام توكيد للوجود ، فعل حركة ، بينما الاستقالة ايدان بالقوط . ولقد عبر خليل رامز سر كريس عن التزام المصير في المغامرة الكبرى بانها « لا تفتأ تمتنع القضايا المعاصرة للانسان في كل عهد وارض » (« مصير » ، ص ٢٠٣) . فالانسان ليس قائما بنفسه لو لم يكن قائما بسواه . وهذا يذكرنا بعلاقة الانا والانت لدى فويرباخ وبوبر ، اذ انها يفسران الحب على هذا الاساس . وعند خليل رامز سر كريس يطالعنا نفس صوفي في قوله : « انتني فيك . اي معنى للارض كان لولا هذا التداخل ؟ اي مصير ؟ لولاك لم ار نفسي ،

ولا رأيت نفسك لولاي » (« مصير » ، ص ١٧) . مغامرة خليل رامز سر كريس لا حد لها ، فالتساؤل والاستفهام لا يقف . حتى ان احدى الميزات الرئيسية في الثلاثية المذكورة هي كون المؤلف يفكر - على غرار اوغسطين - بواسطة اسئلة وتساؤلات (« صرت سؤالا لنفسي » : اوغسطين) . وهذا من صلب مغامرته ، لان الانسان الناطق كلمته فعل وجود ، يتحقق ابدا ، يعمل فيتحقق (« بقي - كلمتي روحا الى جسد - لم يكتمل بناؤه » : « مصير » ، ص ١٢) . وحين يقول : « فعل وجود اريد الكلمة » ، يذكرنا بنظرة هيدغر الى اللغة (بمعناها الميتافيزيائي على انها « بيت الكينونة او الوجود ») . هذا الانسان - المغامرة لم يولد بعد ، « نحن ما نزال في طور التكوين » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٩٨) ، والحياة لا تزال في البدء ، انها دائما في تحطياتها ومجازاة طبيعتها . وهذا بالضبط ما يعبر عنه نيتشه حين يقول عن الانسان انه « الحيوان الذي لم يكتمل بعد » ، ولا بد من تحطيه او تكامله . (وقد ذكر جوليان هكسلي في مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب دو شاردان « الظاهرة الانسانية » ان دو شاردان يستشهد بقول نيتشه هذا ويستحسنه) . واستمرار الخلق او التوكيد على ان الخلق لم ينته بعد هو ما يعلنه خليل رامز سر كريس لكي يبرر التقدم والتطور : « لم يخلق الكون والانسان خلق نهائية لا تقبل المزيد ، وذلك في تصميم الالهة بلا ريب » (« مصير » ، ص ٢٣٢) . لكن سر كريس لا يقبل بفكرة « العود الابدى » ، لان العودة الدائمة (« لا جديد تحت الشمس ») فحواها التكرار بدل التحرر والابداع - حسب قوله . الرؤيا المؤمنة التي تلتزم مصير الانسان تكتمل باستمرار في الميلاد وفي الايمان المسيحي . وليس من الضروري ان يحول وفائي للارض دون الاله . المغامرة الكبرى في طورها المبدع لا تستمر بلا حدود ، لها تاريخ ، وهذا التاريخ يبتدىء وينتهي (لولا النهاية لانعدم اتجاه التاريخ) . اي ان المغامرة الكبرى لا تتمدى نطاق الزمان والمكان ، اذ هي تخاف - او يخاف عليها المؤلف - من استمرارها في الصعود حتى تتجاوز البشر الى الاله

(« مصر » ، ص ٢٢٥) . وهكذا تغدو المغامرة الكبرى - مغامرة ايمان عند خليل رامز سر كيس ، اذ الايمان « فحوى » تلك المغامرة (الايمان هو الاصل والعقل هو الفرع !) . وايمانه لا بد منه ، اذ « فاما ان اومن واما ان ازول » (« مصر » ، ص ١١٩) . لكن هذا الايمان الملتزم لمشاكل الانسان والكون لا يتمسك بالعقيدة المتحجرة بل يتطور وينمو ، لا يتنكر للتقدمية او الثورية ، يلتزم هموم العالم ، « يعتقد العالم » ولا يعمد الى الاستقالة « من ذاته ومن الآخرين » ولا يتردد في اتخاذ موقف منفرد من تراثه وتاريخه . فالالتزام الثوري ضرورة ايمانية : « ان ابيت الثوري ... يومئذ ، اخون الاله في انساني » (« مصر » ، ص ١٤٦) .

لكن خليل رامز سر كيس يضيق على رحابة صدر انسان المغامرة المؤمن حين يتساءل : « الا ينبغي للحركة الملهدة ان تكف عن اضطهاد الايمان ، وخصوصا انها مطمئنة الى زوال الاله ؟ » (« مصر » ، ص ١٤٧) . فما الذي يمنع من التساؤل كذلك : « لم لا تكف بعض دعاة وغلاة الحركة المؤمنة عن اضطهاد الاحاد ، ما دامت هي مطمئنة الى وجود الاله وبقاؤه ؟ » اوليس خليل رامز سر كيس هو نفسه الذي يعلن في مطلع « ايام السماء » ان « الله ليس اختراعا ، انما هو اكتشاف » ؟ لم لا يترك ارباب الايمان الحركة الملهدة وشأنها حتى يتسنى لها تحقيق ذلك الاكتشاف ، بدلا من اكرامها على تقبل الاختراع ؟ او لم يقل خليل رامز سر كيس في « ارضنا الجديدة » (ص ٩٨) ان هذه الارض المنتظرة ، حيث تتحقق فيها بعض ايام السماء على الارض ، « سوف تعمرها شعوب لم يولد معظمها بعد » ؟ الا يعتبر العمل نقطة التقاء المؤمنين والملاحدة ؟ استخلص من كل ما تقدم ان ثلاثية خليل رامز سر كيس - وعلى الاخص كتابه الاخير « مصر » - غنية بالرؤيا ، تنظر الى الحياة قبل كل شيء على انها « فتح في الداخل » (« ايام السماء » ، ص ٤٦) ، والى انسان المغامرة الكبرى على انه في صيرورة دائمة ، يعي مصيره ، « يعمل على مستوى الوعي الكوني » ، يتشخصن ، يبصر (« يشغل من الكون مركز العين ، رؤية وبصيرة ») ، تتنوع مغامراته مع تعدد اشخاصه ، يتآخى مع جاره وقريبه ،

يصنع مصيره بعمل يديه ، ينفق على تراثه من خلال البعد المستقبلي ايضا ، لا السلفي الماضي فحسب ، ولا يقبل التراث الغابر ان لم يشارك هذا التراث في واقع الانسان ومرتجاه . « المصير » عنده في صيرورة دائمة ، واهم ابعاده ومقوماته في آن واحد يغدو العمل الذي يجسد معنى الاله ، العمل الذي لا يني او يكتفي ولا يتكل على النعمة وحدها ، لكنه لا يحور الانسان بدون هذه النعمة .

ان رؤيا خليل رامز سر كيس في ابعادها الذاتية والطبيعية - الكونية والالهية المؤمنة هي رؤيا شعرية - ميتافيزيائية قبل كل شيء : « لا شعر في عمرنا . عصرنا جله نثر » (« مصر » ، ص ١٥) تتصدى لمصير الانسان بصدق ايمان وشمول يجعلانها تجربة غنية ، حية ومنفتحة . ولقد كان مبدعا في الباس نثره الجميل حلة الشعر الذي دخل في مغامرة اكتشاف الكون والانسان والله . وحين يقول هولدرلن : « ابداع الشعر : اكثر الصناعات براعة » ، « لذلك اعطى الانسان اشد العطايا خطرا ، اللغة ، لكي يشهد على ما هو ... » ، نجد ثلاثية خليل رامز سر كيس تؤكد على كرامة الانسان وطموحه ، وكأنها وضعت نصب عينها « ارادة الانسان لتصغير ذاته » - التي تحدث عنها نيتشه - لكي تشهد على قلق مصيره ، واعية لضعفه ، ومدركة لعظمته وممكناته ، ومتخطية ذلك كله لتصير مغامرة الانسان المؤمن الذي ينفق على العصر في اكتشافاته وارتياذاته المستمرة ، في حركة دائمة تعي تواصل الحقيقة ولا تتجاهل بعدها الشخصاني . لكنها ، بالاضافة الى ذلك كله ، لا تريد الوقوف عند حدود العالم : « كيف كنت ابقى لو اني من العالم وفي العالم والى العالم ليس غير ؟ » (« مصر » ، ص ٢٦) . هذا الطموح الذي يلازم انسان المغامرة الكبرى ، ويؤمن بكرامة الانسان ومركزه الممتاز في الكون ، يجمع عنصري العظمة والماسة في آن واحد ، اذ هو طموح الى المزيد في مغامرة دائمة يخالطها الشعور بان ما تبحث عنه ينأى كلما توغلت في صميمه . انه الصيرورة الهيرقليطية والصراع الذي لا يهدأ : « هنا مأساتي وعظمي في يوم معا ، مأساة المغامرة وعظمة المصير » .

اسعد رزوق